٢ التحدى العالمى

حكاية السيد ثعلب والأستاذ غراب !

د. حسين مؤنس

التحدى

ان العرب يملكون أعظم ثروة سمع بها فى التاريخ فهى بالايين بعد بالايين من أقوى العملات فى الدنيا . ويملكون كذلك أطنانا كثيرة من الذهب مودعة فى خزائن أعظم مصارف الدنيا على أعماق بعيدة تحت الأرض ، وهذه الثروة التى لاتصدق تمتاز بميزتين كبيرتين . الأولى أنها ثروة سائلة : نقود يمكن التصرف فيها فى الحال . ثم إنها فى تزايد مستمر . فإن كنوز البترول فى البلاد العربية تخرج فى اليوم الواحد ١٥ بليون برميل من البترول ، متوسط ثمن البرميل منها ٣٠ دولارا . فهل سيعرف العرب كيف يستخدمون هذه الثروة الطائلة فى النهوض بالعالم الثالث وإنقاذ الاقتصاد العالمى المتدهور ، أو سيحتفظون بها فى المصارف ؟

وفى هذه الحالة نسأل : لماذا يستخرجون البترول إذن . هل يفعلون ذلك ليعودوا إلى دفنه بعد تحويله إلى عملات وذهب رقيق . انهم بهذا يضيعون على أنفسهم فرصة المساهمة فى صنع التاريخ . ثم إن مصيرهم بعد ذلك إلى ضياع لاشك فيه .

هذه العبارة ترد متفرقة فى مواضع ومناسبات شتى مما يحكيه جان جاك سرفان شرايبر فى كتابه الممتع الكثير « التحدى العالمى » وهو فى كتابه هذا شديد الاهتمام بالعرب وأموال العرب ، لاحبا فى العرب طبعا . فمن الواضح أنه لايحبهم . ولكنه يحاول أن يفهمهم باستخدام أموالهم فى إنقاذ الاقتصاد الأوروبى . ويتصور أنه يستطيع بذلك أن يخدم فرنسا وحدها بأموال العرب . وكلامه عن استخدام أموال العرب للنهوض بالعالم الثالث معناه أن ينفق العرب أموالهم فى شراء مصنوعات وأجهزة ومشروعات من أوروبا واستخدام فنيين أوربيين فى إدارة الأجهزة والمشروعات . ومعنى ذلك بكل اختصار تسليم الأموال للأوربيين ليتصرفوا هم وحدهم بها تحت ستار خدمة العالم الثالث .

هذا تحد سيرفان شرايبر يخصص نحو ثلث الكتاب لقال العرب . وهو يفحص فيه كيف اتصل بالحكومات العربية . المنتجة للبترول فنفذ . وكيف لاحق وزراء البترول فيها ، وتتبع نشاط الأوبك وهى منظمة الأمم المصدرة للبترول وحاول جهده أن « يبيع » لهم فكرة توظيف جانب كبير من أموالهم فيما يسميه بالنهوض بالعالم الثالث .

والقارئ لبعض ماكتب فى هذا المجال يتعجب من أن هذا الطراز من أهل الغرب ما زال يؤمن فى قرارة نفسه بأن العرب قوم سذج وأنه من الممكن خداعهم والحصول على أموالهم على الطريقة التى حكاها الشاعر الفرنسى لافونتين فى قصة الأستاذ غراب ، (ميتر كورفو) .

وحكاية الميتر كورفو معروفة لنا جميعا منذ الصغر . ولكن لابأس من التذكير بها هنا . وخلاصتها أن الغراب اختطف قطعة كبيرة من الجبن وطار بها ووقف على غصن شجرة ورآه الثعلب فقرر فى نفسه الحصول على قطعة الجبن . فذهب إلى أسفل الشجرة وصاح :

السلام عليكم يامتر كورفو .

ونظره إليه الغراب ولم يجب فمضى الثعلب يقول :

إن لك يامتر صوتا عذبا طالما أطربنى . ولاأدرى لماذا تبخل به علينا .

ولم يجب الغراب . فمضى السيد الثعلب أو المسيو ريار كما يقول لافونتين يقول : أقصد أيها المتر البارع أنى فى أشد الشوق لسماع صوتك الشجى فهل تتفضل بإسماعى أغنية من الغانيك العذاب .

ولم يصدق الغراب سمعه . وتعجب من أمر المسيو ريار ومايريد . ولكنه فضل أن يلزم الصمت حتى يفصح الثعلب الخبيث عما يريد . ومضى المسيو ريار يقول .

صدقنى والله بأستاذ الغناء العظيم الذى لاتشديد الشوق إلى سماع صوتك الجميل ولا أطالبك بأغنية فقد يكون هذا كثيرا علىّ ولكن مارأيك فى أن تتفضل وتخطف علىّ بنغم واحد يشف سحبى ويطرب روحى .

وأخذت كلمات المسيو ريار تعمل فى نفس الميتر كورفو فقال فى نفسه : هل أكون صدّاعا شجى الصوت دون أن أدرى ؟ ربما فإن الكثيرين لهم مواهب لايتبهون إليها . ومامله صوتى هل هو أقل من صوت البلبل أو الكروان .

واحس المسيو ريار أن كلماته بدأت تعمل عملها فى نفس الغراب الذكى الغبى يلمح ويرجو ويستعطف ويؤكد للغراب أنه أستاذ عظيم فى الغناء . وأخذ قلب الغراب يدخدغ ويرق . وأخيرا لم يستطع المقاومة . فابتسم ورفع عقيرته بجملة طويلة جميلة فتح فاه مقاره كله وأودع فيها فمه جميعا .

وقبل أن يقفل مقاره وينظر إلى المسيو ريار أجرى تأثير نغمه فى نفسه كان صاحبنا قد التقط قطعة الجبن التى سقطت من المقار الحديدى ومضى .

قصة ساذجة ! لا والله ما هى ساذجة ولا قصة أطفال . فإن المسيو ريار – وهو الغراب ما زال يخدع الميتر كورفو – وهم العرب – ويحصل منهم على الملايين بعد الملايين إلى يومنا هذا .

ولا أقصد بذلك البسائط التى تحكى للتندر من آمثال الغربى الذى اشترى ساعة بثلاثة ملايين من الدولارات . أو السيد العربى الذى نزل فى مطار لندن واتجه رأسا إلى نادى البلاى بوى حيث خسر ثلاثة أرباع مليون جنيه إسترلينى فى ساعتين . فانسحب نفسه وخرج من النادى إلى المطار وعاد إلى بلاده كأنه ترك بلاده لكى يهدى سواقط نادى البلاى بوى هذا المبلغ الطائل كأنه عائد يرحل الرحلة الطويلة ليضيع ما تيسر من المال فى صندوق النذور لا أقصد هذه البسائط فهى زلات وخطايا .

ولكنى أقصد الشراك الرهيبة التى يقع فيها الكثير من أبناء جنسنا العربى فيخسرون فى خسائر لبلادهم تقدر بالملايين وتؤخر بلادهم بدلا من أن تسرع بتقدمها .

وفى هذا العالم العربى البترولى موان كاملة أنشئت بلا داع ولا ضرورة ، واشترط السيد ريار فى عقد إنشائها أن يقوم الفنيون من عنده بإدارة الميناء وأجهزته المعقدة . والميناء تكلف ٨ آلاف مليون جنيه إسترلينى ، وكل الفنيين فيه إنجليز وأمريكيون يتقاضون فى السنة مليونين للمرتبات ويطلبون قطع غيار وإصلاحات مما يقارب البليون . ولابد من أن يدفع إخواننا ذلك كله صاغرين وإلا توقف العمل فى الميناء فكأن الشركات الإنجليزية التى اشتركت فى إنشاء هذا الميناء تحتل جزءا من أراضى البلد العربى وتدرا طائلا من ماله يدفع لها كل سنة احتلالا دائما هو أسوأ من الاحتلال العسكرى فيما مضى .

وهؤلاء الخبراء الأذكياء أوقعوا الجزائر فى كارثة أشد وأدهى . فقد أقنعوا حكومة الجزائر بأنها تستطيع أن تخطو فى سباق التصنيع عشر خطوات فى خطوة واحدة . قالوا لرجالها إن التصنيع – إلى إنشاء المصانع – عملية يطول أمرها . ولا تخطو بالبلاد إلى أمام بالسرعة المطلوبة . وإن الرأى السديد هو أن تدخل الجزائر ميدان الصناعات المصنّعة (بتشديد النون وكسرها) مباشرة .

أى إنشاء المصانع التى تصنع معدات المصانع الخفيفة وما يلزم لها . وقالوا لهم إنهم فى فرنسا وانجلترا وألمانيا واليابان يهتمون فى المقام الأول بالمصانع المصنعة فهى مصانع للموتورات بكل مقاييسها والتوربينات بكل أحجامها والمحولات الكهربائية التى

تحتاج إليها المصانع كلها . وبفضل هذه المصانع المصنعة يمكن لتلك البلاد أن تنشىء أى نوع من المصانع تريد . وقالوا لهم إن هذه المصانع الأساسية الكبرى تؤتى أرباحا طائلة فى النهاية لأن الجزائر ستدخل بذلك فى عالم الأمم المنشئة للصناعات فى بلاد الأخرين فتنشىء مصانع السيارات والنسيج وما إليها فى بلاد العالم الثالث وتدخل المناقصات العالمية الكبرى كما تفعل اليابان والولايات المتحدة وفرنسا وتصبح بذلك من بلاد العالم الأول دفعة واحدة .

واقنع أصحابنا فى الجزائر بذلك وقتيت بالفعل تقارير رسمية تقول إن الجزائر إذا فعلت ذلك استطاعت أن تنشىء للعالم العربى المتخلف كل صناعاته وتجنى الأرباح التى لا تحصى . وأنشأ الفرنسيون للجزائريين مصانع كبرى تكلفت الملايين . وكل الفضل فى هذه المصانع فرنسيون . ونظر الجزائريون بعد عشر سنوات فإذا بهم قد أنشأوا فى بلادهم كوارث لا مصانع . فهم أولا لا يستطيعون تسيير هذه المصانع بأنفسهم . ولابد من الخبراء الفرنسيين . ثم ليتبين أن هذا النوع من المصانع يحتاج إلى أكثر من خمسين سنة حتى تنتج إنتاجا حقيقيا يستطيع تحقيق الغاية المطلوبة من ورائه .

وفى النهاية أصبحت هذه المصانع مراكز احتلال فرنسية فى قلب الجزائر المستقلة . وحارب المجاهدون الجزائريون ومات منهم مليون إنسان ليحرروا بلادهم . ثم جاء عاقلة أولياء الأمور فأعادوا الاحتلال . لأن كل صناعة الجزائر اليوم فى يد الفرنسيين .

وفيما بعد النهاية تبين الجزائريون أنهم وقعوا فى ربقة الذين . كل الأموال التى تأتيهم من البترول والغاز ابتلعتها وبتلعها هذه المصانع . والجزائر التى تعد من البلاد المصدرة للبترول وتحتل مقعدا ضخما فى منظمة الأوبك مدينة اليوم أصبحت كأى بلد متخلف . لم ينعم الله عليه ببترول ولا غاز طبيعى .

ثم تقول لى إن حكاية السيد ريبار والمليونير كوربو قصة ساذجة للأطفال .

وندع مأساة الجزائر وما إليها ونتظر فى حرب العراق وإيران . إن العراق كانت البادئة هذه حقيقة لاشك فيها . وما الذى أوقع العراق فى هذه المصيبة ؟ المسيو ريبار .

والمسيو ريبار هنا هم الروس .

قالوا لإخواننا فى العراق – على طريقة السيد لعلب فى احتياله على الأستاذ غراب إن إيران اليوم فى قواها شاملة . وآية الله روح الله الخمينى قد تكفل بالقضاء على الطيارين والفنيين فى الجيش الإيرانى . فهذه فرصتكم لكى تتخلصوا من معاهدتكم الشائنة مع إيران وتستعيدوا سيادتكم على كل شط العرب . ثم تحرروا عربستان التى هى عربستان وبضاعتها مساحة العراق .

قالوا لهم ذلك وهم يعرفون أن الذى يحارب إيران لا يحارب الجيش الإيرانى وحده . بل يحارب الأرض الإيرانية أولا . فهذه مئات الألوف من الكيلو مترات من الأرض . هضاب وجبال قاحلة تبلغ أى عدد من الدبابات والسيارات المصفحة والمدافع فضلا عن ألوف الجنود .

وانتدب أصحابنا فى العراق ودخلوا حرب إيران .

وفى أقل من شهرين من الحرب استفد العراق معظم قواته ومعداته وأنفق نحو ٤٠ ألف مليون دولار .

نعم لقد استولى على أراض وبعض المدن . لكن المحافظة على هذه « الفتوحات » تتطلب أموالا لا حصر لها وجنودا بلا نهاية .

وبدأت حرب العصابات خلف خطوط العراق .

وتؤادت فى الأفق صور هزيمة نابليون أمام أراضى روسيا سنة ١٨١٢ ، وهزيمة هتلر عند ستالينجراد سنة ١٩٤٣ .

والتفت إخواننا فى العراق إلى الروس وقالوا : إنجدونا بالسلاح والمعدات . وقال السيد « ريباردوف » ومن أين تدفعون أثمان ما تطلبون وقد نفدت أموالكم وبعطل بترولكم .

الملك فيصل كان يتصرف دائما بأناة وحكمة

الشيخ أحمد زكى اليمانى المحرك الحقيقى للجانب العربى من منظمة الأوبك

معمر القذافى شطحاته اعترضت سير مفاوضات البترول

– ولكنكم وعدتمونا .

– ونحن عند وعدنا . ولكن المال قليل البضاعة . والتعامل معنا على أساس كاش أندكارى فهات الكاش والا بلاش .

حقا لقد كتب لافونتين حكايته للأطفال ولكنا نسى أن هناك ناسا يظلون حياتهم كلها أطفالا .

صاحبنا جان جاك سيرفان شرايبر يحسب أن العرب كلهم أطفال فهو يريد أن يبيعهم الخلايا الإلكترونية المعقدة جدا لكى يخدموا بها أنفسهم ويحسنوا استغلال أموالهم ويساعدوا أهل العالم الثالث .

وهو يقص فى كتابه هذا أطرافا من محاولاته لإقناع العرب أصحاب البترول فى « مقلب » تحويل مشروع ضخم لإنتاج تلك الخلايا ولكن فاته أن بعض العرب – بعد التجارب المريرة التى مروا بها – قد تخطوا مرحلة أساطير لافونتين .

فهو يقول : بعد أن زرت الطائف وشهدت عن قرب دورة مؤتمر الأوبك هناك . وكانت دورة سرية ذهبت فى ١٠ أكتوبر ١٩٧٨ إلى الكويت وهناك قضيت ساعات طويلة فى الحديث مع الشيخ على خليفة الصباح وهو أصغر وزراء البترول فى العالم سنا . وقلت له : لقد قرأت من قراءة تقرير الأوبك عن الخطة الطويلة المدى التى وضعتها هذه المنظمة خاصة باستخدام جانب من رءوس أموالها فى تنمية العالم الثالث . وقد وجدت هذا التقرير يذكر ١٧ مرة عبارة « نقل التكنولوجيا » والتقرير كله يقع فى ٤٥ صفحة . فهل تستطيع أن تقول لى ما هى هذه التكنولوجيا التى تريدون نقلها ؟ فنظر إلىّ برهة ثم قال : تريد الحقيقة ؟ لا أدرى

فعدت أسأل : وهل الشيخ أحمد زكى اليمانى يعرف ؟

– لا أظن .

ولما كان سؤالى هذا يتعلق بمصير العالم فقد عدت أسأل

– ما هى ماهية هذه التكنولوجيا المطلوبة ؟ وهل هى توفر للعالم احتياجاته أم كل مشاكله ؟ أنت والشيخ اليمانى لابد لكما من معرفة الجواب الدقيق على هذا السؤال قبل أن تقدما على استنزاف أموالكم فى ذلك الطلب

فقال الشيخ على خليفة الصباح : نستطيع أن ندارس الأمر معا . إنى سأكون فى الجزائر بعد ١٥ يوما لحضور اجتماعات دورة طارئة للأوبك . فيمكنك أن تدارس الموضوع مع أصحابك من الفرنسيين واليابانيين والألمان . ثم نلتقى لنتحدث . وبالفعل بالفعل يومى ١٦ و١٧ أغسطس ١٩٧٨ فى الكويت .

كان معنا إخصائيون من الأوربيين واليابانيين . وإن معنا إلى جانب وزير البترول الكويتى الشيخ أحمد زكى اليمانى ، وهو المحرك الحقيقى للجانب العربى من منظمة الأوبك . إنه رجل موهوب يتولى وزارة البترول السعودية من ١٧ سنة . وكان الذى اختاره وأعده للمسئوليات الجسيمة الملك فيصل . واليمانى يتصرف دائما بأناة وحكمة . لاشك أنه اقتبس ذلك من الملك فيصل ابيه الروحى . وكانت المفاوضات بيننا وبين رجال البترول العرب تسير سيرا طيبا لا تشوبها إلا شطحات القذافى . ثم جاءت حرب العراق وإيران وتوقف كل شىء .

والكتاب يتحدث عن البترول العربى والثروة العربية بتفصيل . وإلى جانب أحمد زكى اليمانى وعلى خليفة الصباح يتحدث عن عتيقة وفاضل شلبى . ومصطفى بن وبضيف إليهم كالديرون برق وزير البترول الفنزويلى . وفهم من الكلام أن الرجل يريد فى الحقيقة ان يستخدم الثروات العربية فى تحقيق التحول التكنولوجى فى فرنسا بالذات من الحاسبات والمنظمات التليفونية التى تستعمل اليوم فى أوروبا إلى الخلايا الالكترونية الحديدة الصغيرة التى تسمى بالانفورماتيكس . واليابانيون يستخدمونها بمهارة وذكاء . ونحن بعدهم فى ذلك المجال الولايات المتحدة .

والتحدى العظيم الذى يريده جان جاك سيرفان شرايبر هو التحول الحاسم إلى الانفورماتيكس . وهو يعتقد أن أوربا إذا لم تلاحق وهذا التطور فإن اقتصادها مهدد بالانهيار دون شك . ويكفى أن نعلم أن اليابان انتجت خلال نصف سنة ١٩٨٠ أى من يناير إلى آخر يونيو ٥.٥ مليون سيارة ! أى بزيادة مليون على ما أنتجه الولايات المتحدة وضعف ما تنتج أوربا كلها فى العام .

ويضيف شرايبر : وليس المهم أن اليابان أنتجت هذا القدر الهائل من السيارات . ولكن الخطورة تتجلى فى أنها باعتها كلها فى حين أن نصف الإنتاج الإنجليزى من السيارات لا يباع

وإلى هنا نقف بالحديث عن ذلك الكتاب . فهو بالفعل يفتح العيون على المستقبل الذى ينتظرنا . اننا نسير نحو القرن الحادى والعشرين والأفق كله أمامنا ومثل هذه الكتب تعيننا على الرؤية بشىء من الوضوح لكى نستطيع أن نحدد غاياتنا وطرقنا إلى هذا الغد لأننا إذا لم نعرف ذلك من الآن فإننا سندخل القرن الحادى والعشرين فى نفس الظلام الذى دخلنا فيه القرن العشرين

□